فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله قال سهل التستري من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب
فقد طعن في السنة ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان والتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم و
الكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته ثم إن الأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام
أحدها الطاعة التي أمر الله عباده بها وجعلها سببا للنجاة من النار ودخول الجنة فهذا لا بد
من فعله مع التوكل على الله فيه والاستعانة به عليه فإنه لا حول ولا قوة إلا به وما شاء كان
وما لم يشأ لم يكن فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعا
وقدرا قال يوسف بن أسباط كان يقال اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما
كتب له والثاني ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع
والشرب عند العطش والاستظلال من الحر والتدفي من البرد ونحو ذلك فهذا أيضا واجب على
المرء تعاطي أسبابه ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة
لكن الله سبحانه وتعالى قد يقوي بعض عباده من ذلك على ما لا يقوى عليه غيره فإذا عمل بمقتضى
قوته التي اختص بها على غيره فلا حرج عليه ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل في صيامه وينهى
عن ذلك أصحابه ويقول لهم إني لست كهيئتكم إني أطعم وأسقى وفي رواية إني أظل عند ربي يطعمني
ويسقيني وفي رواية إن لي مطعما يطعمني وساقيا يسقيني والأظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم
أراد بذلك أن الله عز وجل يقويه ويغذيه بما يورده على قلبه من الفتوح القدسية والمنح الإلا
هية والمعارف الربانية التي تغنيه عن الطعام والشراب برهة من الدهر كما قيل

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... وقت المسير وفي أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

وقد كان كثير من السلف لهم من القوة على ترك الطعام والشراب ما ليس لغيرهم ولا يتضررون
بذلك وكان ابن الزبير يواصل ثمانية أيام وكان أبو الجوزاء يواصل في صومه بين سبعة أيام
ثم يقبض على ذراع الشاب فيكاد يحطمها أي يكسرها وكان إبراهيم التيمي يمكث شهرين
لا يأكل شيئا إلا أنه يشرب شربة حلو وكان حجاج بن فرافصة يبقى أكثر من عشرة أيام
لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وكان بعضهم لا يبالي بالحر ولا بالبرد كما كان علي رضي الله عنه
يلبس لباس الصيف في الشتاء ولباس الشتاء في الصيف وكان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له أن يذهب
عنه الحر والبرد فمن كان له قوة على هذه الأمور فعمل بمقتضى قوته ولم يضعفه عن طاعة

الله

لأبي بكر وهما في الغار ما ظنك باثنين الله ثالثهما فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد
والحفظ والإعانة بخلاف المعية العامة المذكورة في قوله تعالى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم
ولا خمسة إلا هو سادسهم الآية وقوله يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم فهي مقتضية لتخويف العباد
منه والمعية الأولى تقتضي حفظ العبد وحياطته ونصره فمن حفظ الله تعالى وراعى حقوقه وجده أمامه
وتجاهه على كل حال فاستأنس به واستغنى به عن خلقه كما في حديث أفضل الإيمان أن يعلم العبد أن
الله معه حيث كان وقد سبق وقد روي عن بنان الحمال أنه دخل البرية على طريق تبوك وحده فا
ستوحش فهتف به هاتف لم تستوحش أليس حبيبك معك وقيل لبعضهم ألا تستوحش وحدك فقال
كيف أستوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرني وقيل لآخر إنك وحدك فقال من يكن الله معه كيف يكون وحده
وقيل لآخر ما معك من يؤنسك قال بلى قيل أين هو قال هو أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي وكان
الشبلي ينشد :: إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا :: كفى لمطايانا بذكراك هاديا :: وقوله صلى الله
عليه وسلم تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة يعني أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في
حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة وراعى له تعرفه إليه
في الرخاء فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجا
بته لدعائه معرفة العبد لربه نوعان أحدهما المعرفة العامة وهي معرفة الإقرار به والتصديق
والإيمان وهذه عامة للمؤمنين والثاني معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والا
نقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له وهذه المعرفة الخاصة التي
يدور حولها العارفون كما قال بعضهم مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل له
وما هو قال معرفة الله عز وجل وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي وليس
معرفة الإقرار به ولكن المعرفة التي إذا عرفته استحييت منه ومعرفة الله أيضا للعبد نوعان معرفة
عامة وهي علمه سبحانه بعباده واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه كما قال تعالى ولقد خلقنا الإنسان
ونعلم ما توسوس به نفسه الآية وقال تعالى هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم
والثاني معرفة خاصة وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابته دعاءه وإنجاءه من
الشدائد وهي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى ولا يزال عبدي يتقرب إلي
بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها
ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وفي رواية ولئن دعاني
لأجيبنه ولما هرب الحسن من الحجاج دخل بيت حبيب أبي محمد فقال له حبيب يا أبا سعيد أليس
بينك وبين ربك ما تدعوه فيسترك من هؤلاء ادخل البيت فدخل ودخل الشرط على أثره فلم يروه
فذكر ذلك للحجاج فقال بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه واجتمع الفضيل بن عياض
بشعوانة العابدة فسألها الدعاء فقالت يا فضيل وما بينك وبينه ما إن دعوته أجابك فغشي على الفضيل
وقال لمعروف ما الذي هيجك إلى الانقطاع والعبادة وذكر له الموت والبرزخ والجنة والنار فقال
معروف إن ملكا هذا كله بيده إن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفي الجملة فمن عامل الله